الفصل التاسع

تناقــض الإستهــلاك

- من واقع سلسلة الدراسات التى أعطت الظلال الواضحة عن طبيعة النزعة الإستهلاكية كأسلوب مؤثر فى بناء حياتنا اليومية ، ومنح الخبرة اللازمة للوقوف فى صف الممالك الإجتماعية، والتى تشكل عرضاً بشكل مجرد لطبيعة التغيير الإجتماعى فى مساحات محددة من منوال الحياة الإجتماعية التى خلقت الأشكال المختلفة من الإستهلاك مثل التربية والعناية والرعاية الصحية وإحداث الخبرة اليومية وتفاعلها مع العلاقات الإجتماعية كمواطنين معاصرين فى مجتمع تقوده مجريات الحياة اليومية .

- أن التميز قبل تلك النزعة جعل الناس فى تصنيف من الفرص والخبرات وكمستهلكين يتدربون على شتى طرق الإستهلاك ، مما يعد معه إعتبار النزعة الإستهلاكية فى النهاية بمثابة إعاقة وترتيب لتناقض الإستهلاك ، ودفع أيدلوجى يجرى فيه علماء الإجتماع طريقاً جاداً للفهم لتلك النزعة الإستهلاكية فى مجتمع متلاطم الأهواء والإتجاهات .

- إن مشكلة النزعة الإستهلاكية هى فى الربط بينها بشكل بارز من ناحية الجناح اليمينى السياسى الذى يميل إلى الخطأ فى التقدير وإهمال الحقيقة التى تنادى بأن نسبة مئوية معتبرة من الناس تحرم من حقوقها بشكل فعال من التراث الإستهلاكى ، فالمسألة هنا بأنه على الرغم من ظهور النزعة الإستهلاكية الجذابة على السطح فإن ذلك يعرض للحرية الفردية فى كل الأصناف إلى المدى الذى يتوفر لتلك الحريات الشكل الحر القابل للنقاش إلى حد كبير ، وتلك القضية ناقشها (Nava) سنة ١٩٩١ م من ناحية الوجود الجوهرى للنزعة الإستهلاكية مع أصناف النماذج السياسية ، بحيث يتضح من خلال المحادثات عن المستهلك بأن من لهم الرأى القوى فى تصميم الحياة الإجتماعية يمكن لهم عرضه ، وبكلمات أخرى تعد تلك النزعة بمثابة صالة إستعراض سياسى لإمكان جلب نوع من الجماعية الخيالية والتى تصبح فيها حقوق المستهلك ذات شأن رئيسى سياسى وإجتماعى ، كما أن هناك خطأ فى مدى ميل المستهلك لإستخدام الفرص المتاحة لديه ، فقد أفرز القرن العشرون دوائر إنتخابية مكان السوق يتحرر فيه المواطنون الجدد فى مسالك جديدة تخلق إحتمالاً قائماً

للمشاركة السياسية والشخصيـة والإبداع الإقتصادى فى مختلف أرجاء المجتمع.

- وبميزان كامل لمراكز القوى يمكن رؤية التصنيف وأشكال التراث للمجتمع الإستهلاكى الذى نعيش فيه كأروع طريق يسير فيه المستهلكين ، وربط ذلك بدخول المستهلكين طبقاً لحساب التكلفة والفرص السوقية المتاحة بغض النظر عن مواقع الأسواق ، علاوة على مجموع من الإختيارات المتوافرة للمستهلكين لجلب المصادر والفرص لإستكشاف مثل هذه الإختيارات عند الرغبة فى الحصول عليها .
- أن تكون للمواطن نمط وتراث إستهلاكى فإن تلك المواطنة تتعلق بالشروط التى تفرضها من الإلتزامات المالية ، والإختيارات الإستهلاكية التى تعطى الحرية فى الإستهلاك ، ومساحة الإستهلاك ، والحماية من الجريمة ، والوصول لإستخدام الملابس والأزياء ، والتمتع بالصحة العامة ، والحصول على الأساليب الأساسية للتربية ، وأخذ ما يختاره من الصناعات الثقافية والشعبية ، وإستخدام وسائل وطرق المواصلات ، ولكن المال هنا هو عصب الحياة والمتحكم النهائى فيها ، وفى الواقع فإن ضغوط الحياة المنزلية والعامة تجعلنا كمستهلكين ذوى رؤى عن وسم الحياة بالنزعة الإستهلاكية بالرسم السياسى للمسائل الضرورية للخبرة اليومية للمستهلكين .
- وهكذا نرى مشجع لنادى كرة قدم يمكن له أن يدعم فريقه لمدة طويلة ، ولكن كرياضة فقد أصبحت ذات قوة متاجرة رياضية بطريقة كان يظن أنها كانت مستحيلة أن تبرر الزيادة فى كلفة التمتع بتلك الرياضة بالنسبة لمستهلك الرياضة بعد أن كانت مصدراً للترفيه للعامة ، ولكن هناك ضغوطاً مبررة لذلك كإقامة وإصلاح الملاعب لتصبح أكثر تمتعا وجاذبية للمشاهدين مما يزيد من الكلفة الإقتصادية لملاحقة تلك التغيرات اللازمة .
- علاوة على أن أصناف الفرص التكنولوجية تقدم للفرد خدمات مفيدة تظهر الطبيعة التناقضية للنزعة الإستهلاكية بين فرص البيع وأوساط المستهلكين ، مثل عرض الأقراص المضغوطة ، وإبتكارات عرض الإنتاج الموسيقى بوضوح للأغلبية الساحقة للناس وبشكل كبير مميز ، فتشابك الحياة وأساليب التربية ، وتشجيع الفرص الأكثر للعمل ، والتوجهات الدينية ، والإختيارات المدرسية وتشجيعها خاصة المدارس الخاصة ذات التشريع الحكومى القائم ، والأعباء المالية لإحساس الناس بالنزعة الإستهلاكية وأعبائها المالية قد ربطت بين

الإستهلاك الأكثر وضوحاً وبين التلاصق العالمى للمستهلك حتى يمكنهم التمتع بالفوائد المالية والأدبية بشكل حر .

- إن النزعة الإستهلاكية كأسلوب حياة جعلت من العولمة (Globalization) وسيلة لجلب مظاهر الشهية اللانهائية للتنويع المستفيض بحيث تبدو للمستهلكين أنهم فى ظلال قرية عالمية يجد البشر فيها كافة إحتياجاتهم الضرورية كنسيج متضافر يحدث تقريباً تكامل نوعى لمجتمع الموسرون يجد الأفراد فيها أنفسهم أنهم منساقين وراء القوة المادية للمجتمع الغربى بشكل مادى . وبأن هذه القوة ترتفع من قبل الأوساط الإجتماعية ومن قبل السياسيين بطريقة متشابهة إى المدى الذى عنده يحتل العالم الإجتماعى بشكل نشط ينتزع من الأفراد والمجتمعات كميات ضخمة من الثروات الطبيعية لمنحهم ما يحتاجونه من السلع والبضائع الأساسية اللازمة لإستمرار حياتهم ، وهكذا يبدو (كل شخص يتعاون مع خصمه فى الإنسانية بصفة أساسية لتسيير الطبيعة نفسها للمشاركة فى الإزدهار العام للمجتمع العالمى أبحاث العالم (Latouche) سنة ١٩٩٣ .
- ولقد أضاف (Latouche) إلى القول بأن هناك شخصاً يمكن أن يفوز بفوائد مادية سخية من مجتمع مستهلك ساذج ببساطة تامة . وكل شخص يمكن أن يكسب من الإحساس بالنزعة الإستهلاكية فى إستغلال المساحات الحضرية الأفقر نتيجة إستخدام التقنية الحديثة ، وتلك الحقيقة تنطبق على أن تقدم الثروة الغربية تقدم شخص مهده الطريق المفتوح أمام العالم الغربى مما جنوه من سكان العالم الثالث ، فالمكاسب العالمية الغربية هى عبارة عن فائض دول العالم الثالث بما يتميزون به من الفقر فى الدخل وقلة الأجر ، مما يحفز على مناقشة ربط «نظرية الأنظمة العالمية» ، وتحديد فكرة خلود «مبدأ الوطنية» خاصة فى المجال الإستهلاكى وكذلك الإنتاجى ، لدرجة أن بلدان العالم الثالث قد وجدت أنفسها فى موقف مجبرة فيه على تطوير أسواق يعمل فيها أيدى عاملة وطنية قليلة تساعد على تطور الإقتصاد العالمى طويل الأمد ، وتخدم بشكل مجرد وتسند الإقتصاديات الرئيسية للعالم ، بينما يزداد العالم الثالث فى القروض والديون بشكل ثابت ، والتبعية المتزايدة فوقهم من العالم المتطور ويتركهم متخلفين وعاجزين عن دفع الديون بشكل ثابت ، وكذلك العجز فى إنتاج ما يحتاجون إليه ، حيث أن الرقى لكل فرد له مقاييس فى الحياة يحصل عليها نتيجة تكلفة يدفعها ، وفساد روحى للمجتمع نتيجة السيطرة المادية على نزعاته ومقدرات حياته ، «بحيث تكون الروح فى ذل ثابت نتيجة الأنانية والمعالجة

الحياتية» ، مما يشجع على (ظهور مجتمع وحشى جوهرى النزعة) ، يتبع مبدأ التعاظم للوصول لأقصى النتائج ، مع الحد الأدنى للتكلفة ، والجهد الأكبر نتيجة أجر أقل ، فالنظام الإجتماعى بهذا يبنى على حقيقة إقامة سعادة لأشخاص كهدف إجتماعى على حساب الضرر الحادث للآخرى وسيطرة النقص والجوع والبؤس عليهم أبحاث (Latouche) سنة ١٩٩٣ ، (Wallerstein) سنة ١٩٧٩ ، (Bauman) سنة ١٩٨٨ ، (Campbell) سنة ١٩٨٧ م .

الدور الايدلوجى للنزعة الإستهلاكية :

- أشار العالم (Jameson) سنة ١٩٨٤ م إلى أن التراث الثقافى ليس أيدلوجيا بدرجة كبيرة فهو يزودنا بوسائل تذكر النشاطات الإقتصادية الرأسمالية ليس إلا ، ولكنها نفسها عبارة عن نشاط إقتصادى يتضمن استيراد أنماط من النشاط الإقتصادى بحيث تظهر بشكل حيوى ضمن النزعة الإستهلاكية ، مما دعا إلى تطوير الإنتاج الثقافى الذى طور فى الغرب كنوع من التحديث (أبحاث (K-slater) سنة ١٩٩٧ م) وهو يرى بأن الإستهلاك ليس نتيجة للتحديث الصناعى ، لكنه فى الحقيقة جزء لا يتجزأ فى ذاته جعل العالم الحديث أكثر بكثير من إنتاج مجرد الحداثة ، فهو كالحرباء ، يلعب الإستهلاك فيه دوراً أساسياً فى دستور حقيقى للحياة ، فالنزعة الإستهلاكية عبارة عن وحش أيدلوجى له أبعاد أيدلوجية تحمى المستهلكين عن طريق مقدرتهم فى الإستهلاك الإرادى الرشيد بحيث تميز بطريقة جوهرية التناقضات والتفاوت المرافق لتلك التناقضات بشكل لطيف [العالم (Wilson) سنة ١٩٩٢ م] .
- إن النقطة الرئيسية هنا بأن التغيير الإجتماعى لا يحدث منعزلاً عن ولادة النظام الرأسمالى بصفة عامة ، فالنظام الرأسمالى يمنح المستهلك قسطاً من الحكم الذاتى ، بينما هو فى نفس الوقت مشغولاً بعمومية إضافة وتجربة إيجاد علاقات إنسانية لتنظيم مجالات الرسمية من الحياة للممارسة المفتوحة المتطلعة إلى الشكلية أو السيطرة الديمقراطية ، أو ترك الأفراد يرتبوا ذلك بأنفسهم ولأنفسهم [أبحاث (Lodziak) سنة ١٩٩٥ ، (King) سنة ١٩٩٥ م] .
- لقد قدمت «مدرسة فرانكفورت» عن طريق (Conrad Lodziak) سنة ١٩٩٥ م مجادلة قوية يقترحون فيها قيام المذهب المنادى بالاتجاه إلى السلعية (Commodification) فى أخذ دور متزايد يلعبه فى حياة الناس ، وهذا الدور ليس بشكل ضرورى تقنية واحدة ، ولكن الإتجاه إلى النزعة الإستهلاكية وجدت تلك المدرسة من يعارضها فى اتباع تلك النزعة فهى تشجع إلى

الهيمنة بزيادة المطالب الإستهلاكية المطلوب توفيتها بشكل ضرورى ، والتى يمكن أن يستثمروا فيها معانيهم الشخصية الخاصة فيما يستهلكون ، ويعد بذلك الإستهلاك مصدراً هاماً للخلق والإبداع .

- أن ما جرى إليه العلماء (Hebdige) سنة ١٩٧٩ ، (Eagleton) سنة ١٩٩٤ ، من حتمية وضرورة التأقلم الدورى مع طرق تنظيم المجتمع العالمى فى تنظيم الحياة كنتيجة طبيعية ، فقد أصبح هذا الاتجاه كعقيدة لأن تصبح كعنصر أساسى معيشى فى حياة المعتقدات ، حيث لا يعتقد بأن ذلك يتم بشكل مجرد ، ولكن كقيم إنسانية ككل .

فهم النزعة الإستهلاكية وتأثيرها الخطر على المجتمع:

- تعد النزعة الإستهلاكية ذات دور مؤثر بحيث تلعب فى حياتنا اليومية قوة الجذب للإهتمامات الرأسمالية فى زيادة المستهلكين والإستهلاك مما حدد من القدرة الذاتية لهم والتى تم تزويدهم بها من قبل ، وبالتالى زيادة مواقع الأسواق ، حيث يرى علماء الإجتماع بأن تلك النزعة الإستهلاكية كأسلوب حياة تستهلك التناقض الخطر فى الفتنة القائمة بين العلماء النظريين الإجتماعيين المعاصرين فى الإحساس المنشود بشحذ وإجهاد تلك الخاصية لتحقيق الحياة المعاصرة ، بشكل جعل من الضرورى مسيرة الفرد الحتمية فى الإحساس الأبدى بأصناف الإجهاد والتوترات التى ميزت الطبيعة المتعددة الأبعاد والأطراف لخبرة المستهلك المتأنقة فى تمثيل دوره فى تلك المسرحيات ذات الصبغة الثقافية والإجتماعية المتأنقة سواء كان ذلك بنفسه وتركيبه وخبرته أو «بوكالة من يراه لما يختار» فى شكل ووقت متحد ، ولمس للمستهلكين لإزالة المعوقات التى تجابههم لمناشدة الأفراد والمجتمعات للتحرر من رق العبودية والسيادة العالمية.

- إن الإحساس بالإستقرار أمراً جوهرياً وحيويا وثيق الصلة بجعل الأفراد يعتمدون على أنفسهم وممكناتهم وإمكانياتهم كى يصبحوا وكلاء عن أنفسهم فى الإعالة الخاصة بهم «منهم ولهم» .

- **(إن حياة الفرد عبارة عن خبرة متقلبة بطريقة متزايدة ، مع ارتباط آليات المساندة ارتباطاً تقليدياً بالحداثة ، كنمط وصنف ، وفرد وجماعة إجتماعية من الإستبدال الظاهرى المبدئى والثانوى لمستلزماتهم فى كل نواحى حياتهم اليومية) .**

- **إن المؤانسة نمط جديد من الممارسة الحياتية مثل المكياج وصلته كعلاقة بين الفرد والمجتمع ، تصبح فيه الحداثة بمثابة المعيار الرئيسى والتقليدى للممارسة الفردية فى المجتمع ، وآليات ومرفأ للعلاقات المساندة الإجتماعية والتى تقيد حياتنا اليومية كشغل شاغل لإكتشاف حياتنا من جديد فى ظل متغيرات الحياة .**

- وبعد هذا العرض الشيق والممتع نسألك أيها القارئ العزيز ، هل كان العالم «ستيفن ميلز» (Steven Miles) يدع كتابه مفرطاً فى الإعجاب بتسميته «النزعة الإستهلاكية كأسلوب حياة» (consumerism as a way of life) كاختبار له ولنا ، لممارستنا اليومية فى حياتنا فى عالمنا المعاصر ، أم أنه قد تركنا فى امتحان حقيقى للتدبر فى معرفة أنفسنا ؟؟!!

- وهنا أترك الإجـابة عن هذا السؤال للقارئ العزيز لعله يهدينا إلى الطريق .. والله يهدى إلى الرشد وصراطه المستقيم .

والله الموفق ،

على الدجـوى

obeikandl.com